

الفصل الثامن

مكتراعات القليطارات

في محيط حيلة القطن ٢ م

عندما نستخدم التعبير: مسيحي القرون الميلادية الأولى، علينا أن نأخذ في حسابنا أن هذه التسمية، هي تسمية عامة تشمل شتى الجماعات بلاهوتها وكتبها المقدسة، وطقوسها وما إلى ذلك. والمشارك الذي يجمع بين مختلف هذه الجماعات، هو أنها كانت كلها تعبد يسوع المسيح بصفته وسيطاً بين البشر والإله، مع أن تصوراتهم عن جوهره كانت متباينة تبايناً شديداً. فقد استمر وجود الخلافات مع اليهودية - المسيحية، وهذا ما يشهد به الجدل مع الإيبونييتيين الذي ساقه إيرينيوس. ولكن في القرن ٢م، وعلى الرغم من بقاء اليهود - المسيحيين حاضرين في ساحة الشرق، إلا أنه لم يعد لهم في المقاطعات الغربية من الإمبراطورية سوى تأثير باهت غير مباشر. وهذا ما كان قد مهد له السبيل موقف اليهود من المسيحيين: في نهاية القرن الميلادي الأول وبداية القرن الميلادي الثاني، وبعد هدم معبد أورشليم، ظهرت ثمة ضرورة ملحة بالنسبة لليهود، إذ بات ينبغي عليهم أن يتلاحموا ويتميزوا عن أولئك الذين عدوهم الآخر: فأضافوا إلى الصلاة التي كانت تتلى في كنسهم كلها، لعنة على كل يهودي يتمسك برؤى دينية «مغلوبة»، وهذا ما كان ينسحب على اليهود المسيحيين. ثم أعلنوا بعد ذلك أن النصوص التوراتية التي نسخها المسيحيون ليست نصوصاً مقدسة. وفي القرن الميلادي الثاني قطع المسيحيون بدورهم كل صلة لهم باليهودية (وكان أكثر المسيحيين قد بات من منشأ وثني)، فاتهموا اليهود بإدانة يسوع وصلبه، وكذلك بملاحقته واضطهاده أثناء نشاطه التبشيري. وحاول فريق من قادة المسيحية في أثناء دفاعه عن التعاليم أمام الأباطرة، أن يستبعد أي ذنب للإدارة الرومانية في إعدام يسوع، ضف إلى هذا أنه نشأ في أثناء ذلك تصور في أوساط المؤمنين عن الجبروت الكلي الذي كانت تتمتع به المسيحية من لحظة بدء المسيح

بشارته، وعن اعتراف الرومان بتعاليمها مثلهم مثل كل الذين تواصلوا مع المبشرين المسيحيين: ما عدا اليهود «أبناء جلدة» يسوع. وتكثف السعي في هذا السياق لتبرئة بيلاطس البنطي حتى بالمقارنة مع ما ورد في الأناجيل القانونية. فقد شاع في القرن ٢م تقرير وضعه المؤلفون المسيحيون وادعوا أنه تقرير بيلاطس البنطي إلى الإمبراطور طيباريوس، ووصفت في التقرير الأحداث التي رافقت محاكمة يسوع، وقد أشار ترتوليان إلى هذا التقرير واصفاً بيلاطس على أساسه «بالمسيحي في روحه» (المنافحة)، كما ذكره أيضاً يوسفوس القيصري (التاريخ الكنسي). ثم وضعت بعد ذلك «رسالة بيلاطس إلى الإمبراطور كلاوديوس»، مع أن كلاوديوس اعتلى العرش الإمبراطوري بعد أن كان بيلاطس قد عزل من منصبه بسبب الإفراط الذي لا مبرر له في استخدام العنف. ولكن من وضعوا هذه الرسالة المزيفة مثلهم مثل من وضعوا كثيراً من الوثائق والمؤلفات المزيفة الأخرى، لم يلقوا بالألوان التسلل التاريخي للأحداث، فقد كتبوا ما رأوا أنه يجب أن يكون قد حدث، مستبدلين بواقع الأشياء آمانياتهم، وربما آمنوا فعلاً بالخرافة التي اختلقوها هم أنفسهم. ولم يصل إلينا الأصل الإغريقي لرسالة بيلاطس هذه، أما النص اللاتيني لرسالته إلى كلاوديوس، فقد دخل إنجيل نيقوديموس الذي لم يكتب قبل القرن ٣م، وساق لنا مؤلفه أو مؤلفه وصفاً خيالياً لمحاكمة يسوع في الجزء الأول منه، أما جزؤه الثاني فحمل لنا وصفاً مماثلاً لنزول يسوع إلى الجحيم. ويقول يوستين مدافعاً عن المسيحية في مؤلفه «المنافحة»، أنه ينبغي على خصوم المسيحية أن يعرفوا يسوع والمعجزات التي صنعها من ما سماه «وثائق بيلاطس»، التي ورد فيها وصف العجائب التي وقعت لدى إعدامه. ولكن من غير المعروف ما إذا كان يوستين قد قصد إلى «رسالة بيلاطس إلى طيباريوس» ورسالته إلى كلاوديوس، التي وضعها المسيحيون أنفسهم، أم التقرير الذي تضمنه الأرشيف الحكومي والذي يزعم يوستين أنه يجب أن يكون تضمن وصف تلك العجائب. فقد حملت إلينا المخطوطات القرسطوية النص الإغريقي لتقرير بيلاطس (المرسل إليه في إحدى النسخ): إلى أغسطس قيصر، أي الإمبراطور، وفي النسخة الأخرى: إلى الإمبراطور طيباريوس). والنسختان مشابھتان من حيث المحتوى «الرسالة بيلاطس إلى كلاوديوس»: من الواضح أنهما وضعتا على أساس الأصل الإغريقي لواحد من المنحولات التي تضمنت «رسالة بيلاطس» (انظر الملحق). وعلى أي حال يبدو أن الرسالة قد وضعت بالاعتماد على سير الأحداث كما وردت في أناجيل العهد الجديد، لكن لها سماتها التي تتميز بها؛ وأولها هو سعيها إلى جعل بيلاطس «شاهداً للمسيح»، يصف ما حدث وصفاً «موضوعياً» مشوباً بكثير من التعاطف مع الضحية البريء. أما اليهود الذين كانوا يصيحون مطالبين:

«أصلبه» فقد هلكوا حسب الرسالة المزعومة، في هزة أرضية ضربت المكانة بعد أن فارق يسوع الحياة، وابتلعتهم الأرض.

ولكن على الرغم من كل ما جرى بين اليهود والمسيحيين، إلا أن علاقة هؤلاء الآخرين بالتقليد اليهودي كانت شديدة التعقيد: لم يكن بمقدور المسيحيين الأرثوذكسيين (أو الكنسيين) أن ينبذوا النص التوراتي اليهودي، لأن مواظ يسوع نفسه، وكذلك الأنجيل القانونية تستند دوماً على الناموس والأنبياء. وهكذا بدأت عملية إدخال الكتب التوراتية المقدسة كلها في النظام اللاهوتي المسيحي على المستويين الفلسفي والمعتقد الشعبي. وتحمل أهمية خاصة في هذا الشأن مؤلفات يوستين، وهو أول فيلسوف مسيحي معروف لنا معرفة أكيدة. فقد زعم هذا في مؤلفه: «حديث مع تريفون اليهودي»، أن كتب العهد القديم ليست سوى ناموس «مؤقت»، بينما المسيحية عهد جديد للبشرية كلها، إنها إسرائيل جديدة. وأشار يوستين إلى تناقضات يتضمنها النص التوراتي، ثم يطرح على وجه التحديد موضوعاً يؤكد أن الإله لا يرتاح حتى في يوم السبت. ويولي يوستين في غضون ذلك اهتماماً مكثفاً لتأويل كتب الأنبياء التوراتيين الذين تنبؤوا بمجيء المسيا يسوع.

وبالنسبة للمسيحيين الذين انفصلوا عن اليهود، بات كل ما سبق من تاريخ البشرية تاريخاً سابقاً، مقدمة لمجيء المسيح، الذي أعدت له حتى الكتب التوراتية، لكن اليهود لم يدركوا المغزى الحقيقي لهذه الكتب. وعلى هذا النحو لم يعد الصليب يؤوّل على أنه مجرد أداة إعدام، بل شجرة الحياة التي نمت في الجنة، وصار موسى الذي أخرج الماء من الصخرة، بشير المعمودية؛ والنبي يونان الذي أمضى ثلاثة أيام في بطن الحوت، رمز الخلاص من الظلمات والعودة إلى نور الإيمان الحقيقي.. وبعد تثبيت عقيدة الثالوث المقدس، صارت زيارة الملائكة الثلاثة لأبرام وسارة بشير الثالوث المسيحي ورمزاً له. وبذا بدا كأن اليهود قد أقصوا لا عن الكتاب المقدس المسيحي فقط، إنما عن كتاب العهد القديم. ولكننا سوف نرى لاحقاً في هذا الكتاب، أنه ليس كل من عبد يسوع المسيح أخذ بالنص التوراتي وكتب العهد الجديد وأدخلها نظام معتقداته.

لقد دارت النقاشات في القرن الثاني أيضاً بين أولئك الذين عدوا أنفسهم أتباع المسيحية الكنسية. وعلى هذا النحو تطرق هيرما في «الراعي» إلى مسألة جوهر شخصية يسوع. وحسب تأويله أن الإله وضع الروح القدس «الموجود قبل الأزل» في الجسد الذي اختاره هو نفسه. وكان يسوع هو ذاك الجسد. لقد جعل الإله من يسوع وسيطه. وبعد الصليب عاد المسيح إلى الإله، وبعث جسده من الموت، لأنه جاهد كثيراً وتآلم كثيراً. إذن ما يحدث هنا، هو انفصال يسوع

الإنسان عن المسيح: يحاول هيرما أن يقدم تصوراً عن يسوع المسيح فاصلاً بين جوهره البشري وجوهره الإلهي، الأمر الذي رفضته العقيدة الأرثوذكسية فيما بعد. كما فصل هيرما كذلك بين الآب والابن: لقد ساق في كتابه «الراعي» مثل كروم العنب الذي لا وجود له في أناجيل العهد القديم (لم تكن الأناجيل المذكورة قد تقننت في القرن ٢م بعد). يقول المثل: إن سيداً عهد بكرمه إلى عبده حيناً من الزمن غاب هو فيه عن المكان، وطلب منه أن يبني سياجاً حول الكرم. لكن العبد قام بأعمال أخرى إضافة إلى ما طلبه سيده منه، وجنى محصولاً وفيراً. ولما عاد السيد أقرى عبده طيبات كثيرة، فحملها هذا ووزعها على رفاقه. فأعجب السيد بعبده إعجاباً شديداً وجعله وريثه. وقد أول هذا المثل على النحو الآتي: السيد هو الإله، وكرم العنب هو الشعب الذي خلقه الإله نفسه، والعبد هو ابن الإله الذي جعله وريثاً له لأنه أنقذ «الكرم». إذن يظهر يسوع هنا بصفته عبداً، كما يظهر بصفته ابناً للإله منفصلاً عنه. ومن الواضح هنا أن هيرما لم يكن يعرف عقيدة الثالوث، لأنها على أرجح تقدير لم تكن قد صيغت بعد.

وظهرت عند أواخر القرن الميلادي الثاني تعاليم خاصة طرحها اليهود - المسيحيون، وكتب عنها هيبوليت، وكذلك يوسفوس القيصري (التاريخ الكنسي). ووفق هذه التعاليم أن الإله «تبنى» يسوع الإنسان، لكن أسقف روما أقصى دعاة هذه التعاليم الذين جاؤوا من الشرق (حملوا أسماء إغريقية)، عن الكنيسة.

ولكن الفهم الأكثر راديكالية لشخصية يسوع المسيح وطرق الخلاص، كان لدى المذهب الغنوصي، وهو المذهب الأكثر انتشاراً في القرن ٢م، وكان تيار الغنوصية النقيض المباشر للمسيحية الكنسية. وكان هذا التيار بالذات هو التيار الذي ناهضه إيرنيوس مناهضة شديدة في كتابه «ضد الهرطقات»، ودعا فيه خصومه بالغنوصيين. ولكن أنصار الغنوصية لم يكونوا تياراً موحداً، إذ انقسموا إلى مجموعات مختلفة. وقد أبرز أ. خوسرويف السمات المشتركة الآتية بين هذه المجموعات: الإدعاء بأنهم وحدهم فقط يمتلكون المعرفة التي أسفر عنها الإلهام الإلهي، الأمر الذي قادهم في نهاية المطاف إلى وضع أنفسهم في مواجهة باقي المسيحيين الذين لم يتلقوا مثل هذه المعرفة حسب زعمهم، والسمة الثالثة، هي نبذهم للتراثية الكنسية، وقولهم بعدم وجود كنيسة واحدة، والسمة الثالثة، هي استخدامهم لمختلف التقاليد غير التوراتية في غالب الأحيان، لبناء مقولاتهم النظرية، وتأكيدهم على الفرد في عملية الإبداع النظري. لقد ناهض أكثر المجموعات الغنوصية اليهودية مناهضة حادة، مع أنهم أخذوا عنها الكثير. وحملت هذه السمات طابعاً عاماً، وظهرت في مختلف الصور والرموز بسبب غياب عقيدة متماسكة.

ومن السمات المهمة لتعاليم الغنوصية، التي وجه المنظرون الأرثوذكسيون انتقاداتهم ضدها، سمة الثنوية كأساس لفهم العالم. فخبية الأمل في الواقع القائم، وفي الاعتقاد بالتركيب العقلاني الحكيم للكون، أفضت إلى بروز فكرة الانقسام الثنائي لطبيعة العالم، فكرة الصراع المتواصل بين الخير والشر، وهي الفكرة التي نرصدها لدى القمرانيين أيضاً. لقد باتت هذه الفكرة هي الفكرة الرائدة الآن في الفلسفة، والمعتقدات الدينية، والسيكولوجيا الاجتماعية لدى مختلف فئات السكان. وغني عن البيان القول، إن لهذه الفكرة جذوراً عميقة في العبادات الإيرانية، بما فيها الميترية، وكذلك لدى عبدة هرمس المثلث العظيمة الذي جمع في ذاته شخصيتي هرمس الإغريقي وتوت المصري، وقد شاعت عبادة هذا الهرمس شيوعاً خاصاً في مصر. وحسب تصورات الهرمسيين التي انعكست في مؤلفاتهم، أن الأرض والعالم الجسدي كله شر، مبدأ قاتم، لم يخلقه الإله، الذي يمثل الخير المطلق والنور، إنما قوى بينية. وتنزل الروح البشرية عبر المجالات الكونية من النور إلى الظلام فتفقد كمالها. لقد رأى الهرمسيون في كل ما هو جديد ظلاماً يسعى لابتلاع النور. وليس ثمة سبيل للخلاص من الشر سوى الاتحاد الصوفي مع الإله بالطريقة التي يختارها الفرد، بما في ذلك استخدام تعاويذ صوفية خاصة.

ولم تكن المعتقدات الدينية وحدها التي حاولت أن تنشئ نظاماً نقيضاً للوثنية البدائية، وتمنح أملاً بعون القوى الإلهية، بل فعلت ذلك التعاليم الفلسفية أيضاً. فمنذ القرن الميلادي الأول كان فيلون الإسكندري قد أنشأ تعاليم فلسفية حاول أن يجمع فيها بين التوحيد اليهودي والفلسفة القديمة (= الإغريقية - الرومانية - م). وحسب فيلون أنه ليس للإله أي صفات، وليس له امتداد، وهو يحيط بكل ما في الكون. وثمة وسيط بين هذا الإله المطلق والعالم، هو اللوغوس - الكلمة، العقل، واللوغوس وليد الإله، الملاك الأول. تأتي بعده مباشرة بدرجة أدنى، القوى الإلهية التي تؤثر في العامل والإنسان: الإحساس، والرحمة، والعدل، والقدرة، والحكمة.

لقد كان يتقاطر على المسيحيين أناس من عالم المعتقدات الصوفية والمحاكمات الفلسفية رفضوا قبول البنية التراتبية التي كانت تتبنى في الكنائس المسيحية، ضف إلى هذا اختلاف الكتب المقدسة التي كانت متداولة في أوساط المسيحيين المصريين، فأدى هذا كله إلى ظهور تعاليم قامت في أساسها جملة أفكار عن إله غير مدرك، وعالم لم يخلقه الإله بل قوى دنيا، ولوغوس هو وسيط بين الإله والعالم، وإنسان ينبغي عليه أن يوقظ في ذاته المعرفة الحقة ويعيد اتحاده مع الإله. وقبل اكتشافات نجع حمادي كانت معارفنا عن الغنوصيين -

المسيحيين متقطعة ومحرفة على أيدي خصومهم. فقد أورد الكتاب المسيحيون الأرثوذكسيون أسماء بعض الدعاة الذين كانوا أول من أدخل الأفكار التي أشرنا إليها هنا، إلى التعاليم المسيحية. وكان هؤلاء على وجه الخصوص سمعان الساحر الذي أنشأ مع رفيقته يلينا، فرقة السمعانيين. وكانت أعمال الرسل قد نوهت إلى سمعان الذي كان يمارس السحر في السامرة ويزعم بأنه «شخصية عظيمة». وقد جاء هذا السمعان إلى الرسل وعرض عليهم مالاً لكي يسمحوا له أن يمنح الناس بركة الروح القدس. لكن بطرس طرده (أعمال الرسل). ولكن يبقى من المشكوك فيه أن يكون سمعان الساحر ومؤسس فرقة السمعانيين شخصية واحدة، فاسم سمعان اسم شائع جداً، إلا أن التقليد الكنسي رسخ إدغام الشخصيتين في شخصية واحدة. ويتلخص جوهر تعاليم السمعانيين في أنه ثمة قوة وحيدة يقوم عليها العالم، وهي تتجلى في العقل. وينشئ العقل الفكر كقوة أدنى منه مباشرة، ويملك الفكر قوة الإبداع، فهو الذي أنجب الملائكة والقوى التي أنشأت العالم الأرضي. ولكن الفكر فقد سيطرته على مخلوقاته في أثناء عملية الخلق، فاعتقلته هذه لديها في العالم «السفلي»، عالم الشر. ومن الضروري تحرير الفكر من الأسر الذي هو فيه. وعلى هذه الخلفية تداخلت عند السمعانيين تصوراتهم الصوفية مع السحر، وهذا ما أعطى حجة أخرى للقب سمعان الساحر. ويروى عن سمعان أنه كان يقود معه إلى كل مكان امرأة تدعى يلينا (وصفها الكتاب المسيحيون بأنها عاهرة)، عدها التجسيد الحي للفكر الإلهي. وقد رأى المسيحيون في سمعان هذا واحداً من خصوم الإيمان الحقيقي الرئيسين. ونقل كثير من الكتاب المسيحيين أشياء كثيرة عن سمعان وتعاليمه، ومنهم إيرينيوس، وهيبوليت، وترتوليان. وله حضور في أعمال بطرس المنحولة أيضاً.

كما يمكننا أن نرى الأفكار الغنوصية في المعلومات التي وصلت إلينا عن ماركيون، وكنا قد رأينا أن هذا عمل يوماً على انتقاء الكتب المقدسة ومراجعتها. لقد رفض ماركيون رفضاً قاطعاً أن يكون ليسوع طبيعة بشرية، ورأى أنه ليس للإله المطلق أي علاقة بخلق العالم والإنسان، وأن الجنس البشري غريب تماماً عنه. وقد جاء المسيا يسوع لينقذ هؤلاء الناس الغريباء بالنسبة لهذا الإله المجهول، فاشتراهم بدمه، ولا أحد يشتري سوى ما لا يملك. لقد صحح ماركيون النصوص بما يتفق ورؤاه هذه. ففي رسالة بولس إلى الغلاطيين مثلاً وضع ماركيون بدلاً من التعبير: «الذي أحبني» (والمقصود هنا هو المسيح)، تعبيراً آخر، هو «الذي اشتراني». ولم يكن للمملكة الإلهية مكان في تعاليم ماركيون، كما أنه لم يعترف بكتاب العهد القديم. ولكن على الرغم من راديكالية أفكاره هذه كلها، فقد كان ماركيون ينشط داخل

كنيسة روما ساعياً إلى إقناع أعضائها بصحة أفكاره. بيد أن الكنيسة المعنية ما لبثت أن طردته من صفوفها، بل ردوا إليه مساهمته المالية التي كان قد قدمها للكنيسة. ومع ذلك واصل ماركيون دعوته، وقد حاول قادة الجماعات الأرثوذكسية إقناعه بالعودة إلى الإيمان الحق تفادياً لخطر تأثيره؛ لكن الحوار معه لم يقض إلى نتيجة: لقد مات ماركيون.

إذن، لقد حاول ماركيون أن يسخر النصوص المقدسة المعترف بها لخدمة أغراضه وفرض سيطرته على الكنيسة الأرثوذكسية الرومانية. لكن القرن ٢م عرف انتشاراً عريضاً لجماعات ذات طابع غنوصي وقفت بعيداً في الطرف المواجه للمسيحية الكنسية، بل وصفت هذه الأخيرة بأنها هرطقة. ومن حيث جوهرها المحدد كانت التعاليم الغنوصية تعاليم يختلف واحدها عن الآخر. أما المشترك الذي كان يجمع بينها، فهو إقرارها بأن العالم المادي خلق نتيجة خطأ ما، أو وفق إرادة شريرة، فلا يمكن إنقاذ أي شيء جسدي، وليس سوى المختارين الذين حافظوا في أرواحهم على قبس من النور الإلهي، يمكنهم أن ينالوا الخلاص عن طريق المعرفة الوجدانية للذات، ولم يكن ليسوع طبيعة بشرية بالنسبة للغنوصيين الذين دعوا أنفسهم أتباع المسيح، فهو المخلص الموجود قبل الأزل، «آدم السماوي» اللوغوس. ورفض هؤلاء قيامة يسوع بالجسد وقالوا إنه لا يمكن أن يؤمن بهذا سوى الأغبياء السذج. فالقيامة من وجهة نظرهم ظاهرة روحية وليست مادية، وقد رمزت إلى كيفية الإحساس بوجود يسوع الآن: تقول رؤيا بطرس الغنوصية، إن المسيح روح مليء بنور متلألئ. ولذلك لم يكرس الغنوصيون كتاباتهم لحياة يسوع الزمنية، إنما لتعاليمه وأحاديثه مع تلاميذه الذين اصطفاهم بعد قيامته. وأول بعضهم وجود يسوع معلقاً على الصليب على أنه وجود وهمي متخيل، بينما رأى آخرون أن يسوع قد اختفى أساساً قبيل الصليب. وأن اليهود الذين أصيبوا بعمى البصيرة قد صلبوا بدلاً منه سمعان الذي حمل صليب يسوع إلى مكان الصلب (ومن المعروف أن رواية «شبه لهم» قد أخذ بها الإسلام أيضاً).

واتخذ الغنوصيون موقفاً شديداً العداء من التنظيم الكنسي الناشئ: لقد وردت في نص رؤيا بطرس الذي عثر عليه في نجع حمادي، الكلمات التي قالها المسيح الخارج لتوه من القبر، لبطرس، إذ زعم هذا أن المسيح قال له، سوف يظهر نوع من الناس يجمع أخوته: «وعبر هذه (أي الطائفة الكنسية). - أ. خوسرويف مترجم النص إلى الروسية) يمنح إلها الرحمة، لأن خلاصنا يمكن أن يكون فيها (فقط)...» وقال أيضاً، إن أولئك الذين يدعون أنفسهم أساقفة أو شماسة يطمحون إلى احتلال الصفوف الأولى. (ولكنهم) «فتوات لا ماء فيها»^(١).

١- لقد جاءت نصوص رؤيا بطرس التي سقناها هنا، في ترجمة أ. خوسرويف (من تاريخ المسيحية المبكرة ص ٣٢١). وعلق خوسرويف بإسهاب على هذا الأثر التاريخي.

وشغلت مكانة مهمة في تعاليم أكثر الغنوصيين، تأملاتهم وتخميناتهم بصدد ظهور العالم الجسدي كنتيجة لسقوط الروح الموجود قبل الأزل، وانقسام الكل الكامل إلى متعاكسات: علوي - سفلي، ويميني - يساري، ومذكر - مؤنث. ورأى هو في البناء الكوني هرمًا مدرجاً يقف الإله المطلق في أعلى رأسه (وهو كلي، أب، صالح)، وتتوضع متدرجة على درجاتها نزولاً مختلف درجات الملائكة، والقوى، والسلطين الذين أخذوا يفقدون رويداً رويداً كمالهم البدني. ومن تصورهم عن المادي بصفته شراً، توصل الغنوصيون إلى استنتاجات أخلاقية متضاربة. فدعوا إلى التمسك وتطرفوا في ذلك، كما دعوا إلى حياة العزوبية لكن بعضهم قال: بما أن الجسد والروح ينتميان إلى العالم الدني، فإن إصلاح شأنهما مستحيل، لكن المختارين الذين اكتشفوا قبس الروح الإلهي في ذواتهم، نجحوا في الانفصال عن جوهرهم المادي. لقد اتصف أكثر معلمي الغنوصية بالفردية المتطرفة. فقد زعم الغنوصي البارز الذي عاش في القرن ٢م فاسيليس، أن الكائنات البشرية لا تنال الخير الحق إلا عندما يعرف كل نفسه ومجاليه. وكان لفاسيليس موقف لا مبال تجاه من يرتد في زمن الملاحقات والتنكيل، إذ رأى أن الألم والشهادة لا معنى لهما، وأن الارتداد الظاهري لا أهمية له، فالهم هو الحالة الداخلية للإنسان، رؤية الإله.

ومن أشهر غنوصي القرن ٢م، الداعية والشاعر فالينتين. وكان هذا قد ولد في مصر، وجم تعاليم المصريين في الدين والسحر والصوفية. وفي بادئ عهده علّم فالينتين في الإسكندرية، ثم انتقل فيما بعد إلى روما. لكن مسيحيي روما نبذوه، ومع ذلك كان له أنصار كثير في مصر. وآسيا الصغرى، وبعض مدن إيطاليا. ولم تصل إلينا تعاليمه إلا في رواية آلد خصوصه.

وتميزت التصورات الغنوصية عن الإله برؤياها له شخصية ثنائية في وحدتها: يمتلك العنصرين الذكري والأنثوي. وحسب هيبوليت أن بعض الغنوصيين كانوا يصلون للإله الواحد الأب والأم. ورأى الغنوصيون أن العنصر (= المبدأ - م) الذكري خلق العقل (نوس)، في اللغة الإغريقية اسم مذكر، بينما خلق العنصر الأنثوي الفكر (إيببيونا، في اللغة الإغريقية اسم مؤنث)، ومع أن هذين يختلف أحدهما عن الآخر، إلا أنهما واحد. وقد طور فالينتين نظرية مشابهة فقال: الإله، هو الأب الأول المجهول الذي لا يرى ولا يعبر عنه، إنه العمق الذي لا قرار له؛ والمبدأ الأنثوي، هو الغبطة، الحزن، أم كل ما هو موجود. وقد دخلت في الصمت كما في الحزن، ومن هنا ظهرت انبثاقات الإله كلها، مختلف الأيونات (الماهيات الأزلية)، التي يشكل مجموعها تمام الوجود. ثم ظهرت خارج البليروما (الكثرة، الوفرة) أزواج من شتى القوى والسلطين (وأنجب

كل زوج من المتعاكسات زوجاً جديداً). ورأى فالينتين أن السلطان اليميني، هو الخالق المباشر للنظام الكوني (=الكوسموس)، وأن السلطان اليساري، هو خالق الشيطان، ويبدو أن فالينتين قد استعار صورة هذه الشخصية جزئياً من اليهودية، وجزئياً من المعتقدات المسيحية الناشئة في القرن ٢م، ومن المعروف أن الديانتين رأتا في الشيطان حامل الشر أما المسيح، فهو عند فالينتين واحدة من الماهيات الصوفية، الذي فتح أمام الجنس البشري إمكانية الغنوص: بلوغ البليروما روحياً. ورفض فالينتين وأنصاره أن يكون للأساقفة حتى قيادة المسيحيين. فليس لأحد نفوذ أو تأثير إلا لمن يستطيع أن يقيم صلة مباشرة مع «الحي» (أي مع اللوغوس - يسوع). ورأى هؤلاء أن الانفعال الذاتي (الصحة) وحده معيار الحقيقة، ورفضوا كل تقليد آت من الآخر. وعلى هذا النحو فإن نيل النفوذ والسمعة، هو عملية كارزمية ومفاجئة، إنه اكتشاف.

ولكن البنى الغنوصية اللا منطقية المقطوعة عن واقع الأشياء، لم تكن مجرد محاولة للجمع بين الفلسفة المثالية، خاصة رؤى فيلون الإسكندري، وتعاليم المسيحية، إنما كانت تعبيراً عن إحساس هؤلاء بتفاهة العالم الواقعي، وسعيهم لإنشاء لوحة عن البناء الكوني مطرودة تماماً خارج الحياة الواقعية، ومتوقعة كلياً في داخل ذاتها. وقد شكل سرد هذه الايونات النازلة من فوق، المولودة من ذاتها، مزاجاً محدداً، وفهماً للعالم المحيط بصفته مظهراً تخفي وراءه الماهيات الحقيقية المحجوبة عن الإنسان العادي. ومن هنا جاءت التأويلات الصوفية، ورمزية الحروف والأرقام والأسماء، والصيغ السحرية. وقد انتقل بعض المجموعات الصوفية خاصة في مصر، وأقام في معتكفات معزولة، بعيداً عن المدن الكبرى، لكي يتفادى أفرادها التواصل مع غير المكرسين ويخلقوا جواً روحياً خاصاً لبلوغ الصحة. وفي المسيحية الأرثوذكسية تمثل إرث تلك الجماعات في حركة الرهبة التي ظهرت في مصر إبان القرن الميلادي الثالث، وكانت هذه حركة غريبة من حيث روحيتها عن الكنائس المسيحية المفتوحة أمام كل من يؤمن بيسوع.

ومن البدهي أن يسوع كان بالنسبة لفالينتين وسواه من الغنوصيين الآخرين، كائناً مجرداً من الماهية البشرية. وكان كليمنت الإسكندري قد ساق ما قاله فالينتين عن أن يسوع كان يأكل ويشرب بطريقة فريدة من غير أن يرد ما يأكل ويشرب، لقد كانت قوة الممانعة فيه تمنع الطعام الذي يتناوله من الانحلال والتعفن، لأنه هو نفسه كان منيعاً على الانحلال والتعفن.

ولقد جاءنا التصور الأكمل عما كتبه الغنوصيون، بفضل الاكتشافات التي جرت في نجع حمادي. وكما كانت الحال بالنسبة لمخطوطات قمران، كذلك هنا اكتشفت مكتبة

نجع حمادي مصادفة على أيدي العرب المحليين. وقد حملت مخطوطات اللغة القبطية نفسها هنا تاريخياً يرقى إلى حوالي ٣٥٠-٤٠٠م، ومن الواضح أن المخطوطات المعنية قد أخفيت هنا في العصر الذي انتشرت فيه الكنيسة الأرثوذكسية (القرن ٤م)، ولوحق الغنوصيون بصفتهم هراطقة. وقد أثارت هذه المخطوطات جدلاً في الدراسات العلمية حول زمن كتابة تصونها الأصلية، أي النصوص التي ترجمت هذه المخطوطات أو نسخت عنها. فبعضها لا يمكن أن يكون قد كتب بعد النصف الأول من القرن ٢م، فايرينيوس يتحدث عن كثير من الأناجيل التي كانت شائعة في زمنه (حوالي العام ١٨٠م) في روما، واليونان، وآسيا الصغرى. وحسب الباحثين أن واحداً من أقرب الكتب إلى الكتب المسيحية المبكرة: إنجيل توما، يتضمن لوغيا يسوع التي يرقى تاريخها إلى النصف الثاني من القرن ١م، وربما تكون هذه أقدم من إنجيل مرقس وإنجيل متى، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا. فمؤلف هذا الكتاب لم يشر قط إلى أي من الأناجيل القانونية. ويرقى تاريخ النسخة القبطية التي وصلت إلينا من إنجيل توما، إلى حوالي القرن ٢م. ولا تزال مسألة تحديد مكان ظهور هذا الإنجيل غير محسومة. فهو يبدأ بالكلمات الآتية: «هذه هي الكلمات الخفية التي قالها يسوع الحي وكتبها ديديم يهودا توما». ونقف على مثل هذه الصيغة لاسم الرسول توما في كتاب أعمال توما المكتوب باللغة السورية (= السريانية - م): لقد كان توما ذا شعبية واسعة في أوساط المسيحيين السوريين على وجه الخصوص، وعليه ربما تكون المجموعة الأولى لأقوال يسوع التي دخلت هذا الإنجيل، قد جمعت في سوريا، ولكننا لا نستطيع أن ننفي استخدام أقواله اليهودية - المسيحية التي كانت شائعة في فلسطين: في القول الثاني عشر يسأل التلاميذ يسوع من الذي سيكون الكبير عليهم بعد أن يرحل هو عنهم، فيجيبهم يسوع: «في المكان الذي تأتون إليه، تذهبون إلى يعقوب العادل، الذي من أجله ظهرت السماء والأرض». وعليه فإن تأثير أورشليم على النص الأصلي أمر وارد. ومن حيث جنسه الأدبي، ينتمي إنجيل توما إلى «أدب الحكمة» اليهودي الذي من نوع سفر الجامعة وحكمة سليمان، والأمثال. فثمة فيها طائفة من الأقوال التي أنشئت في تقاليد هذا الأدب، لا سيما منها تلك التي تنتمي إلى القرن ١م، فهي كأدب الحكمة، مكرسة لحياة الناس، والقيم الأخلاقية، ولما هو سيئ في هذا العالم، زد إلى هذا أن أكثر الأمثلة الواردة هي أكثر تحديداً ودقة من تلك التي وردت في أناجيل العهد الجديد. ويستحق الاهتمام في هذا السياق المثل الذي ساقه توما عن الوليمة التي أوردتها الأناجيل في تنويعات مختلفة. ففي إنجيل توما أن سيداً أمر عبده بأن يدعو ضيوفاً إلى العشاء، لكنهم رفضوا تلبية الدعوة. أحدهم رفض لأن عليه أن يتسلم الأموال من التجار، والآخر لأنه اشترى

منزلاً جديداً، والثالث لأنه مدعو إلى حفل زفاف، والرابع لأنه اشترى ضيعة ومضى يجمع الجبايات.. عندئذٍ أمر السيد عبده أن يمضي إلى الطريق ويدعو من يجده هناك. ثم ينتهي المثل بالتهديد التالي: «لن يدخل الباعة والمشترون مطارح أبي». ويعد هذا المثل هو الأقرب إلى ما ورد في إنجيل لوقا. فهنا أيضاً يرسل السيد عبده ليدعو الضيوف، فيعتذر هؤلاء عن المجيء بسبب انشغالهم. عندئذٍ أمر السيد عبده أن يدعو الفقراء، وذوي العاهات من عرج ومكفوفين وما شابه: يتميز هذا الإنجيل بتوجهه الدائم إلى الفقراء والمستضعفين. ولا يحتوي إنجيل لوقا على التعبير المتعلق بالباعة والمشتريين. فقد جاء في آخر المثل: «المدعوون كثير، لكن المختارين قلة»، أي قلة هم الذين يتبعون يسوع وينالون الثواب (لوقا). أما في إنجيل متى فالمثل مقطوع عن الواقع الفعلي، ولا يزال أكثر رمزية، وينبغي على المتلقي نفسه أن يفهم رمزيته: يقيم الملك وليمة زفاف ولده؛ ولم يكتف المدعوون برفض الدعوة، بل قتلوا العبيد، فنال كل منهم عقابه في اللحظة عينها، إذ أرسل الملك قواته فأحرقت مدينتهم. وأمر العبيد بأن يدعوا الجميع إلى وليمة العرس. وأضيف إلى هذا المثل مشهد الشخص الذي جاء إلى الوليمة مرتدياً ملابس «غير ملابس العرس». فأمر الملك خدمه أن يرموا به «في الظلمة الخارجية، وهناك يكون البكاء وصريف الأسنان» (متى). إذن، لم يقتصر العقاب في هذا المثل على من اضطهدوا خدم الملك، إنما طال أيضاً ذلك الذي جاء في الملابس غير الملائمة، أي ذلك الذي لم يعتق التعاليم الحقّة. ويظهر الملك عند متى قاضياً رهيباً منتقماً. ويبدو أن مثلي توما ولوقا ينتميان إلى مصدر أكثر قدماً وربما إلى ما قاله يسوع فعلاً، لأنه ليس فيهما ابن وقتلة عبيد الإله، فالملك عند متى ليس سوى إله العهد القديم الرهيب. ومن أقوال يسوع التي تدين الثروة والأثرياء، ما جاء في إنجيل توما عن يسوع: «انظروا إلى ملوككم وكباركم، إنهم يرتدون ملابس خفيفة، فهم عاجزون عن معرفة الحقيقة».

وكما أشرنا في أثناء توصيفنا لوصايا الغبطة، فإن هذه موجودة أيضاً في إنجيل توما. ولكن إضافة إلى وعد الفقراء والمضطهدين والجوعى بالغبطة (وهو يشبه ما جاء في إنجيل لوقا)، أدخلت إلى النص في إنجيل توما جملة ترتبط مباشرة بالفهم الغنوصي للأشياء: «أيها المغبوطون وحدكم المختارون، لأنكم ترون الملكوت. لأنكم منه وإلى هناك تعودون من جديد».

ويمثل قول إنجيل توما الداعي إلى ضرورة نشر التعاليم الجديدة، صدى التقليد المسيحي القديم: «ما تسمعه بأذنك، بشر به الآخر من أبناء جلدتك. إن أحداً لا يشعل المصباح ويضعه تحت القدر، ولا أحد يضعه في مكان خفي». ومن الواضح أن هذا القول هو من جدال ضد عزلة القمرانيين وانغلاقهم، وقد جاء في أناجيل العهد الجديد أيضاً. ولكنه يبدو في

إنجيل توما الموجود لدى القبطيين الملىء بأفكار الغنوصيين، قولاً مناقضاً لسرية التعاليم. ونقف هنا أيضاً على نظائر للوغيات البرديات الإغريقية مقتبسة بوضوح من التقليد اليهودي - المسيحي: «إذا أنت لم تنبذ هذا العالم، فإنك لن تجد الملكوت، وإذا لم تجعل السبت سبباً، فإنك لن ترى الأب». وفي الآن عينه يرفض المؤلف رفضاً قاطعاً طقس الختان اليهودي، وقال: لو كان في الختان منفعة لجعل الأب الإنسان مختوناً بالولادة، أما الشيء الوحيد المفيد، فهو ما يدعوه مؤلف إنجيل توما هذا رمزياً: «الختان الروحي».

وفي الوقت عينه فإن إنجيل توما مليء بالأفكار التي لا تعارض تعاليم المسيحية الأرثوذكسية وحدها، إنما تمثل أيضاً نقیضاً للقيم الثقافية السائدة وقتئذٍ. فمؤلف هذا الإنجيل يجادل مشككاً في ضرورة أن يرفع المسيحيون الصلوات ويوزعوا الحسنات، ويلتزموا بالصوم: «لقد قال يسوع: إذا صمت، خلقتم الإثم في نفوسكم^(١)، وإذا صليتم فسوف تدانون، إذا أعطيتم الحسنات، تسببون الأذى لأرواحكم. وإذا جئتم أرضاً ودخلتم قرية واستقبلوكم، فكلوا ما يقدمونه لكم. وداووا المرضى. لأن ما يدخل أفواهكم لا يندسكم، إنما يندسكم ما يخرج منها». لقد استخدمت في هذه الجمل الأقوال التي دخلت نص العهد الجديد أيضاً: ضرورة مداواة المرضى، وما قيل عن أن ما يدخل إلى الإنسان لا يندسه (ويبدو أن هذه الموضوعات الأخيرة، هي واحدة من موضوعات المسيحيين المبكرة، التي ربما تعود إلى يسوع نفسه، إذ وضعها في سياق معارضة القيم الروحية للطقوسية اليهودية). ولكن الامتناع عن تأدية الصلوات، أي الامتناع عن التوجه إلى الإله، لم يكن أمراً متوافقاً مع الحياة الدينية، ليس للمسيحيين فقط، إنما لأتباع الديانات الشرقية الأخرى أيضاً، أما إدانة منح الحسنات، فهي موضوعة وضعت صاحبها ومن أخذ بها خارج دائرة القيم الأخلاقية المعمول بها، لا سيما لدى المسيحيين.

ووصف إنجيل توما العواقب التي سوف تترتب على مجيء يسوع وصفاً أكثر جلاءً وتوتراً مما فعل كتاب العهد الجديد. وفي بادئ الأمر كان هذا الوصف وصف يوم القيامة، لكن الحديث يجري هنا عن دمار النظام الكوني برمته: «قد يظن الناس أنني جئت أرمي السلام على الكون، وهم لا يعلمون أنني أتيت لأرمي الشقاق، والنار، والسيف والحرب فيه.

١- وترد في قول آخر (١٠٨) كلمات قريبة من تلك التي جاءت في العهد الجديد، وهي لا تدين الصوم والصلاة في غياب يسوع. عندما يخرج العريس من خيمة العرس، عندئذٍ فليصوموا (من الواضح من هم هؤلاء)، وليصلوا ربما ورد هذا في واحدة من الصيغ المبكرة، لكن المحرر الغنوصي أدخل فيما بعد تقييماً الخاص لهذه العادات.

لأنه إذا كان في البيت خمسة، فإن ثلاثة سوف يقومون ضد اثنين والاثنان ضد الثلاثة. فالأب ضد ابنه، والابن ضد أبيه وهم سيقفون متفرقين». أما في الأناجيل القانونية، فقد ورد النص مختصراً فاستخدم متى رمزية السيف: «لم آت لأجلب السلام، بل السيف» (متى) بينما استخدم لوقا الكلمة الأكثر تحديداً: «الشقاق».

ويتميز مؤلف إنجيل توما الذي وصل إلينا نصه، بفهمه الخاص لمفهوم المملكة الإلهية. فثمة في فاتحة هذا الإنجيل جدل مع فكرة الكلمة الإلهية في السماء: «الملوكوت في داخلكم وفي خارجكم»؛ ويقول في مكان آخر إن الملوكوت موجود في الأرض كلها، لكن الناس لا تراه. وبكلمات أخرى. تساق هنا فكرة الوجود الأزلي للروح الإلهي: ملكوت الإله، ولن يناله الإنسان إلا إذا أدرك ذاته، ووجده فيها إذا كان في داخله نور. ويسوع هو النور: «قال يسوع: أنا النور الذي على الكل. أنا كل شيء: كل شيء خرج مني وعاد إلي»، إنه مكلوء بالأسرار. ففكرة مناعة ماهية يسوع على التعبير حاضرة في المشهد الذي يسأل يسوع فيه تلاميذه بمن يشبهونه، أي من يشبه هو. فشبهه بطرس بالملاك، وشبهه متى بالفيلسوف الحكيم، وقال توما إن فمه عاجز عن التعبير عن تشبيهه بأحد. وعندئذ قال يسوع لتوما بضع كلمات لم يجرؤ هذا الأخير على البوح بها للتلاميذ الآخرين. فالمسيا يسوع إنما يساعد «بني البشر» الذين من أجلهم ظهر (لم يولد!) بالجسد، على أن يتذكروا من أين أتوا وإلى أين ينبغي أن يعودوا. ولم يدغم يسوع بالإله، ففي قوله الشهير الذي ورد في أناجيل العهد الجديد، كما في الأناجيل اليهودية - المسيحية رداً على سؤال بخصوص إمكانية تأدية الضريبة لروما، قال يسوع في إنجيل توما، إضافة إلى ما جاء في أناجيل العهد الجديد: «ما هو لي أعطوني». وفي هذه الإضافة فصل بين يسوع والإله الذي كان يؤمن اليهود - المسيحيون به، لكنه لم يكن بالنسبة للغنوصيين إلهاً حقيقياً، فتوما لم يدعه إلهاً، بل أباً. وربما يكمن في هذا سبب إسقاط صفة «الإلهي» في إنجيل توما، عندما يجري الحديث عن الملوكوت. وقد تكون هذه الصفة تركت أيضاً لأنها تستدعي تداعيات راسخة بصدد موعد حلول مملكة الإله على الأرض، وهو ما كان غريباً مرفوضاً بالنسبة للوعي الفردي لمؤلف إنجيل توما. ولم يحتو هذا الإنجيل على وصف لخلق العالم، والإيونات، ونزول الروح وإمكانات تساميه، والقوى والسلطين اليمينية واليسارية، وهو ما اتصف به الفكر الغنوصي المتطور. فإنجيل توما عكس الخطوات الأولى لسير المسيحيين الأوائل نحو الغنوصية، ورفض العالم الواقعي، وهو التوجه الذي حقق لحظة ازدهاره في النصف الثاني من القرن ٢م. لقد كان الأمر الأهم بالنسبة لتوما، هو أن تحقق الشخصية ذاتها في هذا العالم الذي يبدو عالماً قاسياً وتافهاً.

وإذا كان إنجيل توما يرتبط مباشرة بالتقليد المسيحي القديم، فإن إنجيل فيليبوس يمثل بحثاً دينياً - فلسفياً متميزاً، أعد لدائرة ضيقة من القراء. فهو يتضمن ميثولوجيا ورمزية غنوصيتين، ويتألف من أقوال متفرقة لا يرتبط بعضها مع بعض دائماً. وكانت تسمية إنجيل فيليبوس قد جاءت في آخر المخطوط القبطي الذي يرقى تاريخه إلى القرن ٤م، لكن الباحثين يرون أن النص الأصلي لهذا الإنجيل كان قد وضع في القرن الميلادي الثاني إبان عصر انتشار التعاليم الغنوصية.

وقد أولى هذا الإنجيل اهتماماً كبيراً لمسائل نشوء العالم، وماهيته ومعرفة الحقيقة، وبخاصة لمسألة من هو المسيحي الحق. ويبرز بجلاء في هذا الإنجيل تصور العالم الناقص منقسماً إلى عناصر (مبادئ - م) متضادة: النور والظلام، واليمين واليساري، والحقيقة والضلال، والمذكر والمؤنث، وقد استدعى هذا كله حضور الموت: «النور والظلام، والحياة والموت، واليميني واليساري أخوة واحد» للآخر: «عندما كانت حواء في آدم، لم يكن ثمة موت. وبعد أن انفصلت عنه، ظهر الموت. وحينما تدخل إليه ثانية، يختفي الموت». إذن يجب أن يكون العالم الروحي الكامل كلاً واحداً.

أما ظهور العالم المادي فقد جاء نتيجة خطأ ارتكب: فخالق العالم أراد أن يجعله خالداً غير قابل للهلاك، ولكنه لم يبلغ ذلك. ولا يشير إنجيل فيليب إلى من خلق العالم الزماني. بيد أنه نوه إلى قوى شتى، وسلطين يملؤون ما بين الإله الكامل والعالم الدني، فيظهر السلطين قوى تعمل على هلاك الإنسان وخداعه وتحويله إلى عبد لها.

ولا يكتفي مؤلف إنجيل فيليبوس بإظهار الموقف الغنوصي من النظام الكوني، إنما يعلن أيضاً عن نفسه أنه مسيحي، ولذلك فهو يسعى إلى شرح بعض العقائد المسيحية، فأخذ ببعضها ونبذ بعضها الآخر. وكان من أبرز المسائل التي نهضت أمامه، مسألة العلاقة بين وجود الشر وجبروت الإله المطلق. وقد اعترف المؤلف في سياق بحثه لهذه المسألة بأن الشر نسبي: في نهاية المطاف تخضع قوى الشر أيضاً، للروح القدس. وكما جاء في هذا الإنجيل: «فقد ظن السلطين أنهم فعلوا ما فعلوه بقواهم الذاتية وإرادتهم هم. لكن الروح القدس هو الذي فعل ذلك كله بوساطتهم من غير أن يعلموا، وقد فعل كل شيء كما أراد هو». ولكن الناس يمكنهم أن يهزموا الشر، شريطة أن يدركوا الحقيقة، ولذلك فهو يدعو الإنسان إلى تدمير الشر في قلبه (وهي فكرة مسيحية مشتركة)، إلا أن الشر لن يهزم إلا إذا استطاع الإنسان أن يدركه. فالمعرفة وحدها التي تجعل الإنسان حراً. فالحقيقة هي الحرية، والجهل هو العبودية: إنه المفهوم المفتاحي لدى فيليبوس. ولكن الحرية والعبودية لا تحملان في تعاليمه

أي صبغة اجتماعية. فالحرية بالنسبة إليه هي الحرية الروحية التي تتحقق ببلوغ معرفة الحقيقة، والعبودية هي عدم المعرفة، الجهل وحسب: «إن الذي يملك معرفة الحقيقة حر. والحر لا يرتكب الآثام، لأن من يرتكب الإثم عبد للإثم». وثمة في إحدى المواضع كلمات تنسب إلى اللوغوس (الكلمة الإلهية): «لقد قال اللوغوس: إذا أنتم أدركتم الحقيقة، فإن الحقيقة تجعلكم أحراراً». بيد أن معرفة الحقيقة ليس بالأمر اليسير، لأنها «لم تأت إلى العالم عارية، بل في رموز وصور». ومن الواضح أن هذا الإنجيل مكلو بالرموز والصور التي ينبغي فكها، والإحساس بها، وبذا تغدو مفهومة ومدركة.

وتحتل مكانة مرموقة في هذا المؤلف الاستدلالات العقلية التي سبقت بصدد الذين يستطيعون امتلاك المعرفة الحقيقية. وقد ساق المؤلف في فاتحة كتابه واحدة من أفكاره الرئيسية التي تقول: إن الذين يمتلكون المعرفة الداخلية «هم كذلك منذ البدء»، وهؤلاء المختارون. هم بالضبط من يصنع الناس الحقيقيين الآخرين. بكلمات أخرى، إن الناس المتميزين الذين أرسى فيهم نور خاص، وحدهم القادرون على معرفة الحقيقة. ثم يسوق المؤلف بعد ذلك مثلاً تعبيرياً: «في دورانه حول حجر الرحي يقطع الحمار مئة ميل. وعندما فكوا رباطه، كان واقفاً في المكان عينه. وثمة أناس يروحون ويغدون في حركة دائمة، لكنهم لا يبرحون مكانهم. وحينما هبط عليهم الليل لم يروا مدينة ولا قرية، ولا مخلوقات، ولا طبيعة، ولا قوى، ولا ملائكة. لقد راح جهدهم عبثاً».

ولكن كيف تتوافق هذه التعاليم مع إعلان المؤلف عن انتمائه إلى المسيحية؟ فقد قيل في بداية إنجيل فيليبوس: «عندما كنا يهوداً كنا يتامى، لم يكن لنا سوى الأم فقط، وعندما صرنا إلى مسيحيين ظهر لنا أب وأم». بيد أن مسيحية مؤلف إنجيل فيليبوس، هي مسيحية فريدة من نوعها. فالإيمان بقيامة الجسد غريب عنه، إذ يكتب بشيء من السخرية فيقول، هناك من الناس من يخشى القيامة عارياً. إنهم يريدون أن يبعثوا بالجسد. ولكن الجسد والدم لا يستطيعان أن يرثا الملكوت الإلهي (من حيث الجوهر تردد هذه الجملة صدى قول مماثل قاله بولس الرسول). إن من يبعث هو من نال جسد يسوع ودمه، فجسده هو اللوغوس، ودمه هو الروح القدس. ومن الواضح أن الموقف من الجسد هنا موقف سلبي، وفي قول آخر يوصف الجسد مباشرة بأنه محتقر. ويجب على المرء أن ينال القيامة الروحية وهو على قيد الحياة: «ما لم ينالوا القيامة أولاً، وهم أحياء»، (فإنهم) لن ينالوا شيئاً بعد أن يموتوا». وينسحب هذا الفهم عنه على طقس المعمودية، فالطقس بحد ذاته لا يعطي أي شيء، وما لم ينل الإنسان الروح القدس، فإنه لا يمكن أن يدعى مسيحياً.

أما شخصية المسيح في هذا الإنجيل، فإنها شديدة التعقيد، فهو يحتوي على كل شيء في ذاته: الإنسان، والملاك، والسرّ، والآب، وهو لم يظهر على ما هو عليه في حقيقة الأمر. فظهر عظيماً للعظيم، وضئيلاً للضئيل، وملاكاً للملاك، وإنساناً للبشر. ومع ذلك بقي العنصر البشري في المسيح بالنسبة للمؤلف، مجرد وسيلة للتواصل مع البشر. فأسماء التي عرف بها: يسوع، والناصري، والمسيح، ليست أسماء حقيقية، لأن الاسم الحقيقي للوغوس سر لا يعرف. ويرى فيليبوس في أسماء يسوع هذه مجرد رموز: يسوع = الفداء، والناصري = الحقيقة. ويثير الاهتمام في هذا الإنجيل جداله ضد عقيدة الحبل بلا دنس: «لقد قال بعضهم: إن ماريّا حملت من الروح القدس. وإنهم لعلّ ضلال. فهم يهرفون بما لا يعلمون. إذ متى كانت المرأة تحبل من امرأة مثله؟ إن ماريّا عذراء لم تدينسها القوة (والقوة كما أشرنا سابقاً، مفهوم سلبي)». ثم يضيف: «وما كان الرب يقول: [أبي الذي في السموات، لو لم يكن له أب لآخر]، وإلا لقال أبي وحسب». إذن يقوم اعتراض فيليبوس الأول في كون كلمة «روح» باللغة الآرامية مؤنثة الجنس، وربما كان لهذا صلة كذلك بمناداة الأنجيل المبكرة الروح القدس بلقب: أمنا. أما الاعتراض الثاني فيستند إلى التعابير التي استخدمتها الأنجيل القانونية أو، ربما اللوغيات. ونادراً ما يستخدم إنجيل فيليبوس كلمة «الرب». وربما يكون النص الذي استخدمت فيه هذه الكلمة مقتبساً من كتاب ما أكثر قدماً، وقد يكون هذا كتاباً يهودياً - مسيحياً له صلة برؤى الإيبونيتيين استخدمه مؤلفه ليبيدي فيه رأياً مناهضاً للمسيحية الأرثوذكسية، ثم أدخل إليه التأويل الصوفي لشخصية ماريّا، التي يرد اسمها في مكان آخر بصفتها أخته، وأمه، ورفيقته.

إن إنجيل فيليبوس كتاب معقد ومتنوع الدلالات كثيرها. فقد جم عناصر الفلسفة القديمة بمنهجها الديالكتيكي وتعاليمها عن الكلي، إضافة إلى المعتقدات الشرقية، وموضوعات أبحاث الفلاسفة المسيحيين التي كانت شائعة في ذلك الزمن. ونحن لم نظهر هنا سوى بعض جوانب الأثر المتصلة بتاريخ المجموعات التي ظهرت داخل المسيحية المبكرة، وعكست السعي إلى إنشاء تعاليم تتمحور حول العالم الداخلي للإنسان.

وهناك إنجيل آخر اكتشف في نجع حمادي، هو إنجيل الحقيقة، ويعد هذا بدوره كتاباً بعيداً جداً عن مؤلفات العهد الجديد المعروفة. ومثله مثل الكتب الأخرى المماثلة، فإن فكرة إنجيل الحقيقة الرئيسية، هي بلوغ الحقيقة. فأب الحقيقة، هو الإله المطلق؛ والكلمة، هو الوسيط بين الناس والإله. ومن الواضح أن مؤلف إنجيل الحقيقة عارف بالرواية المسيحية لحياة يسوع وتعاليمه؛ فقد عثر العلماء عنده على جملة من التعابير المتطابقة مع ما هو موجود في

كتاب العهد الجديد (الأنجيل، ورؤيا يوحنا ورسالة اليهود). ولكن فهم المؤلف للتعبير المعنوية والسياق الذي سبقت فيه مختلفان. فالحديث يجري هنا بصورة أساسية عن الكلمة - اللوغوس الذي يتخذ أولئك الذين لا يعرفون الأب. وجاء فيه عن يسوع أنه لجأ إلى العالم بما يشبه الجسد، أي أننا من جديد أمام فكرة لا واقعية الطبيعة البشرية ليسوع. ونقيض الكلمة فيه، هو الضلال: وليس هذا سوى مفهوم مجرد تجريباً لا حد له. وقد لاحق هذا المفهوم يسوع لأنه منح البشر النور: ليس ثمة حضور هنا لفكرة آلام يسوع تكفيراً عن آثام البشر. فلم يلق المؤلف بالاً لظروف صلب يسوع: لقد سمر على الشجرة، رمز شجرة الحياة، وصار إلى ثمرة المعرفة بالأب. وهو لم يبعث بالجسد، إنما عاد إلى ذاته ثانية بعد أن رمى عنه الثوب الفاني. وتوَوَّل في إنجيل الحقيقة مواعد يسوع التي عرفها المؤلف. تأويلاً رمزياً: يفسر مثل إنقاذ المعزاة في السبت، أن يسوع منحها الحياة لكي يبين للناس أن الإنقاذ مستمر والخلص لا يعرف يوم راحة. وكما هي الحال عند الغنوصيين الآخرين، فإن المسيحية لدى مؤلف إنجيل الحقيقة، هي العودة إلى المعرفة الحقيقية عن الإله الذي نسيه الناس. ومثلما يفعل الشعراء، فقد شبه المؤلف الحياة الدنيا بالحلم الفارغ. فالتناس هم ضحايا الصور الفارغة التي يرونها في أحلامهم، وفريسة الكآبة والخوف اللذين حملهما الجهل إلى العالم. «وانتشرت الكآبة كما ينتشر الضباب، فحجبت الرؤيا. ولذلك بات الضلال جباراً». ولكن عبر الإلهام الصوفي: الغنوص، يستيقظ الناس، فيتذكرون، ويتخلصون من أخطائهم. ويحمل الغنوص - gnosis بالنسبة للمؤلف طابعاً حدسياً وليس طابعاً منطقياً. ولا يواجه مؤلف هذا العمل أي مسائل أخلاقية: إن الإنسان في منظوره كائن وحيد موجود خارج العالم المحيط، وبعيد عن الناس. ونحن نرى أنه ربما كان فالنتين أو أحد أنصاره المقربين، هو مؤلف إنجيل الحقيقة. وقد حاول هذا أن يحرر أنصاره من الخوف: ليس الخوف من القوى الخارجية وحسب (وفي القرن الميلادي الثاني كان الخوف آفة ترمي بثقلها على حشود متزايدة من الناس)، إنما الخوف من الإله كذلك، الخوف من العقاب، والخوف من الحرمان من إمكانية دخول ملكوت الإله، هذا الخوف الذي كان يسيطر على الذين عدوا أنفسهم آثمين، من أتباع المسيحية الأرثوذكسية. فمعرفة الإله تعني الاتحاد به.

وانعكست هنا بأكثر ما يكون الوضوح، فكرة الإنسان المجرد الموجود خارج المجتمع، والعلاقات العائلية، والأخلاقية، والتقاليد. ويتضح من إنجيل فيليبوس وإنجيل الحقيقة^(١)، أن الغنوصيين قد رفضوا الإقرار بوحدانية الإله التوراتي، مع أنهم كانوا على

١- مع أن هذين المؤلفين سميا إنجيلين، إلا أنهما في حقيقة الأمر بعيدان من حيث جنسهما الأدبي عن الأنجيل بعداً كبير، الأمر الذي حدا بجامعي الأنجيل إلى استبعادهما تماماً من المجموعة.

معرفة أكيدة بالروايات اليهودية - المسيحية والتعاليم الأرثوذكسية، لكنهم أولوها بطريقتهم الخاصة.

وتلقت فكرة تماثل العنصرين: الذكر والأنثوي، في المسيح صياغتها النهائية المكتملة لدى الغنوصيين. فقد أنشأ هؤلاء إنجيل ماريا (أي ماريا المجدلية)، ومع أن هذا الإنجيل لم يعثر عليه في نجع حمادي، إلا أنه يتوافق مع المؤلفات التي عثر عليها هناك. ويعد إنجيل ماريا هذا بدوره نسخة قبطية مترجمة عن أصل إغريقي. وجاءت تسمية الإنجيل، إنجيل ماريا، في آخر المؤلف. وفي هذا الإنجيل (الذي لم يصل إلينا منه سوى مقاطع)، يتحدث يسوع إلى التلاميذ أولاً، ثم تروي المجدلية لهم قصة لقاءها مع يسوع. وتنقل لهم تعليماته. لقد ناقش يسوع الإثم الذي يرتكبه الجنس البشري. ويقول قبيل اختفائه كلاً ما هو من حيث مغزاه قريب مما جاء في إنجيل توما عن ضرورة الحذر من قادة المسيحية: «ها هنا! أو ها هناك! فإن ابن الإنسان في داخلكم». وهناك كثير مما قالته المجدلية نفسها، يذكر بالرواية الإنجيلية القانونية، بيد أن ما تبقى من أقوالها يتعارض مع هذه الرواية. وترد في إنجيل ماريا المجدلية حواراتها مع الرسل، التي لا يفهما منهم سوى اللاوي. وتعتبر في إنجيل ماريا موضوعاً صعد الروح إلى المجالات العليا، وصراعها ضد القوى الشريرة. ويبدو هذا المؤلف كأنه يرسخ هبة المجدلية ودورها، ويحط في الآن عينه من قدر الرسل الذين عارضوها ولم يفهموها، ومن هؤلاء بطرس واندراوس اللذين كانا مبجلين تبجيلاً كبيراً في الكنائس المسيحية الأخرى. ومن الواضح أن إنشاء هذا الإنجيل قد جاء ليعكس النقاش الدائر حول دور المرأة في المسيحية المبكرة، فالغنوصيون يقرون بإمكانية بلوغ المرأة والرجل على حد سواء، حالة الصحة الروحية، وهو ما كان ينبغي أن يلغي التفرقة بينهما.

إننا لم ندرس هنا سوى جزء يسير من المؤلفات الغنوصية التي وضعت ابتداءً من القرن الميلادي الثاني، مع أنه ثمة معتقدات مشابهة تضمنتها مؤلفات مسيحية أكثر قدماً (مثلاً، يسوع - الكلمة في فاتحة إنجيل يوحنا، أو قوله في الإنجيل نفسه: «قوّتي أن اصنع إرادة الذي أرسلني» - يوحنا)، ونصوص أخرى غير مسيحية (ثنوية القمرانيين) وقد حاول المفكرون الغنوصيون صياغة تلك المعتقدات في نظام واحد متكامل. ولكن الانفلاق على الذات، والحالة الباطنية، والطقوس السحرية المعقدة التي كان ينبغي أن تستدعي الصحة الداخلية، لم تجذب إليها سوى بعض الأفراد والمجموعات المعزولة، الذين وضعوا أنفسهم خارج المجتمع القائم. ضف إلى هذا أن فكرة الاصطفاء منذ الأزل، كانت فكرة غريبة عن الكتلة الأساسية من جماهير المسيحيين، وكذلك الحال بالنسبة لفكرة استبدال مفهوم الإيمان،

وهي الفكرة الأساس بالنسبة للاتجاهات المسيحية الرئيسية، والأخذ بالغنوصوس gnososis الحدسي، عداك عن غياب معايير أخلاقية واضحة لدى الغنوصيين، وإسقاطهم فكرة حلول المملكة الإلهية غداة يوم القيامة.

لقد كان صراع المسيحية الكنسية ضد الغنوصية صراعاً طويلاً ومميراً. بيد أن ذلك لم يكن المواجهة الوحيدة بين الناس الذين عدوا أنفسهم مسيحيين. فقد أثارت صيرورة الكنيسة الأسقفية بتراتبيتها الهرمية، سخط غير الغنوصيين أيضاً. وفي القرن ٢م ظهر تيار جديد آخر دعا دعائه إلى العودة إلى معايير الحياة المسيحية الأولى. وارتبط ظهور هذا التيار باسم المدعو مونتانا. وكان هذا في زمن مضى كاهن إلهة آسيا الصغرى الشهيرة كيببلا الأم، ثم اعتنق المسيحية وشرع يناهض التنظيم الكنسي، ساعياً إلى إعادة إحياء المبادئ التي عاش وفقها أنصار يسوع الأوائل. وكان للأنبياء والنبيات الدور الأهم بين أنصار مونتانا، كما كان هو نفسه يتنبأ، وتنبأت كذلك رفيقته مكسيميليا وبريسيليا. ومن الواضح، أن لهذين الاسمين أصل لاتيني، وربما كانت المرأتان مرتبطتين بمدينة أو أكثر، كما قد تكونان من فئة المواطنين الرومان. وحسب اعتقادهم أن موهبة التنبؤ كان يمكن أن توهب لأي مؤمن أو مؤمنة، وعبر مثل هؤلاء الأنبياء انتشرت أفكار مونتانا. لقد أعاد المونتانيون إحياء تقليد اجتماع المؤمنين الذي ترافقه إقامة وليمة مشتركة، وكانت الكنائس المسيحية الأخرى قد تخلت عن هذا التقليد منذ زمن بعيد، وأقامت بدلاً منه اجتماعات لإقامة الصلوات وسماع مواعظ الأساقفة. وشغل المكانة الرئيسة بين المونتانيين أحبار مدينة بيبوزا، أما باقي المؤمنين فقد كانوا رفاقاً وحسب، ولم يكن للأساقفة هنا سوى دور باهت اقتصر على إدارة بعض الشؤون الاقتصادية. ولكن موقف المونتانيين من الأسقفية أثار حفيظة الكنائس المسيحية الأخرى. وتميز المونتانيون بسمة أخرى ذات أهمية: لقد بشروا بقرب ظهور المسيح ثانية وحلول نهاية العالم، مقتفين بهذا أثر مؤلف رؤيا يوحنا. وزعموا أن ظهور المسيح ثانية سوف يكون في مدينة بيبوز، وهي مدينة صغيرة عدها المونتانيون «أورشليم السماوية». وقد كان أتباع مونتانا يتقاطرون على بيبوزا جماعات لكي يشهدوا حدث مجيء يسوع. واستعداداً ليوم الحساب، دعاهم مونتانا إلى التمسك والزهد، والصوم وفك أواصر الزواج. لقد كانت حركة المونتانيين واحدة من آخر موجات الأمل بقرب انتصار مملكة الإله على الأرض، إبان زمن الإمبراطورية الرومانية. ولا ريب في أن هذه الحركة كانت وليدة الأزمة السياسية المتصاعدة في نظام الحكم الإمبراطوري، والإحساس العميق بالارتداد عن المعتقدات الأولى التي انعكست في الأناجيل القديمة. ودفعت السداجة المأساوية للإيمان بقرب لحظة مجيء

يسوع ثانية ، بكثير من المؤمنين إلى ترك كل ما يملكون والسير إلى بيوزا جوعى في غالب الأحيان ، للقاء المجيء الثاني الذي خيب الآمال ولم يحصل...

ومثلهم مثل سواهم من الفرق ، كانت للمونتانيين كتبهم المقدسة الخاصة بهم ، ولكن الدعوة الشفهية أدت الدور الأهم في حركتهم. بيد أن مؤلفاتهم لم تصل إلينا ، ولم ينقل إلينا خصومهم سوى مقتطفات منها لا تتعدى الجمل في بعض الأحيان. ويدل شح الاقتباس على أنه لم يكن ثمة تباين عقيدي جوهري بين المونتانيين والفرق المسيحية الأخرى. وحسب ترتوليان أنهم أقرروا الأسرار والأعياد نفسها التي أخذت بها الجماعات المسيحية الأخرى. ولذلك لم يتناول الجدل جوهر التعاليم. لقد ناهض القادة الكنسيون راديكالية المونتانيين وحسب. فتداعى الأساقفة إلى مؤتمرات محلية كان الهدف منها إدانة المونتانيين ورص صفوف المؤمنين في الصراع ضدهم. ومن لم يتمكن من الحضور كانوا يستفتون رأيه كتابة: بهذه الطريقة جرى الحصول على إدانة «المعذبين الليونيين» للمونتانية ، إذ كان هؤلاء يقبعون في سجون لوغودون (ليون المعاصرة). فقد جرى الاتصال مع هؤلاء على ما يبدو ، عبر من كانوا يزورونهم من أخوتهم في الإيمان ، أو المتعاطفين معهم. وعلى هذا النحو يكون قد ظهر شكل جديد من أشكال اتحاد الزعماء الكنسيين تمثل في المؤتمرات (= المجمع) ، وقد أدت المجمع دوراً رائداً في صيرورة العقائد المسيحية خلال عصر تحول المسيحية إلى ديانة سيدة. ولكن مجمع الأساقفة لم يكن يتوفر بعد على إمكانية إلزام المسيحيين كلهم بالخضوع لقراراته. وهكذا واصلت المونتانية امتدادها ، وانضم إليها ترتوليان نفسه ، الذي كان يعيش في قرطاجة. وما لبث خصوم هذا التيار أن تحولوا من الجدل في المسائل الجوهرية ، إلى كيل اتهامات خرافية مختلفة. فقد أعلن سوتير زعيم المسيحيين الرومان على سبيل المثال ، أن المونتانيين يستخدمون دماء الولدان في أثناء إقامة أسرارهم ، أي أنهم يرتكبون جرائم قتل طقوسية. وغني عن البيان القول ، أن مثل هذه الاتهامات كانت كملت في زمن سابق إلى أتباع يسوع المسيح كلهم. والآن أخذ الأصوليون المسيحيون الكنسيون يستخدمون الاتهامات عينها للنيل من خصومهم. زيادة على هذا أن مثل هذه التهم لم تكن ترمي إلى رد المؤمنين عن المونتانيين وحسب ، إنما قصدت أيضاً إلى لفت انتباه السلطات الرومانية إلى هؤلاء ، وكانت تلك السلطات تخشى بالأصل مسيرات المؤمنين المتعصبين الحاشدة إلى مدينة بيوزا. ويبدو إذن ، أن سوتير سعى إلى التكيل بالمونتانيين ، لكن على أيدي سلطات روما. ومن الواضح أنه كانت هناك صدمات مباشرة بين أنصار مونتانا وخصومه. فقد أخبرنا يوسفوس أن المونتانيين دعوا خصومهم: «قتلة الأنبياء» ، أما النبوة مكسيميليا فقالت ، إنهم يلاحقونها كما يلاحقون الذئب.

لقد استمرت حركة المونتانيين على قيد الحياة بين توهج وخبو، زمناً طويلاً نسبياً، ففي القرن ٦م أصدر الإمبراطور جستنيان إرادة إمبراطورية حرم عليهم بمقتضاها أن يجتمعوا، أو يقيموا ولائم مشتركة.

وهكذا يبدو كأن الغنوصية والمونتانية كانتا تيارين متطرفين في مسيحية القرن الميلادي الثاني. وفي الصراع ضدهما نشأت عقيدية تلك المسيحية التي كانت الأكثر تجاوباً مع متطلبات جمهور المسيحيين، والأكثر توافقاً وتلاؤماً مع المجتمع المحيط. كما اكتمل في مسيرة ذلك الصراع نفسه بناء نظام القيم الأخلاقية، والهيكل التنظيمي لهذه المسيحية الأخيرة. ولكن القرن ٢م لم يكن قرن صراع التطرف فقط، بل كان أيضاً الزمن الذي ظهرت فيه وتطورت في أطر الاتجاهات المسيحية الرئيسية، الكتب المقدسة الأرثوذكسية، والمعتقدات والكتب التي خرجت على أطر مضمون كتاب العهد الجديد.